المرتدون: تأريخ للشخصية الغربية (2 من3):

المرتد يظهر في روايات عبر علاقة مبالغ فيها مع مسلمة وضمن رؤية ان بلاد المسلمين هي أرض الخلاعة والمجون

الحدود بين الاسلام والمسيحية كانت سالكة باتجاه واحد «أرض الاسلام».. والمسلم المرتد كان غريبا في عالم الغرب

عرض وتقديم: ثامر بيراوي*

هذا كتاب مهم من ذلك النوع من الكتب التي يمكن تسميتها بذات الحديّن، ولا غرابة في ذلك، فالقلم كما السيف والكلمة كالمنشار، قال ذلك عرب وقد يقوله اليوم غربيون معاصرون، والحكمة ضالة المؤمن بحتمية الصح وفناء الخطأ، وقبل هذا وذاك كل شيء فان الا وجه الحقيقة.

وأكثر من أن يكون هذا الكتاب ذا حدين فهو كتاب حدود، موضوعه يخترق الحدود التقليدية بمعناها الجغرافي المعروف ويرسم لنا عوالم كبقع الزيت الهائم فوق الحدود. فمن الناحية العملية البحتة كان هذا الكتاب فرصة جيدة لكاتبته المثقفة الغربية المعتدلة الأهواء والجدية التثقيف للتعرف على زوايا خبيئة من شخصيتها كفرد وكمجتمع، وهو للقارئ الغربي تحسس لحبله السريّ الذي قد يكون قد نسيه كاملا أو نسي بعض أجزائه.

أما لنا فهو سياحة وعلم ومعرفة وتاريخ وجغرافيا وحسرة وتأمل وتعلم، تماما كما تقول الكاتبة عن نفسها نيابة عن قومها، فالآخر نعرفه بالتعرف أيضا على أنفسنا وتظل لعبة المرايا هذه مهمة لكل من أراد مصارحة نفسه ومعرفة الخبيء من زواياها.

وتبقى ميزة الكتاب الأساسية انه يعالج قصة قوم احتار مجتمعهم الأصلي فيهم فلم يصل لا في الماضي ولا في الحاضر الى رأي نهائي حول انتمائهم، وهؤلاء هم من عرفوا في الغرب بالمرتدين، وفي التسمية هذه تهمة ليس مفروضا على القارئ تبنيها، فهم مرتدون بالنسبة للكنيسة وقد يكونون مهديون، وهم شبيهون باليهود والموريسكوس الذين اعتنقوا المسيحية مع فارق وحيد ومهم جدا وهو أن المرتدين دخلوا الاسلام طواعية في أغلب الأحيان بينما اليهود والموريسكوس أجبروا على اعتناق المسيحية ومع هذا عاملهم مجتمعهم الغربي بالشك الدائم والمستمر الذي أفضى في نهاية الأمر الى اجلائهم قسرا عن بلادهم في عملية تطهير عرقي ـ ديني لم يمارسها الشرق أبدا حتى في أحلك أيامه.

على الحدود 2: الأماكن

تبحث الكاتبة في هذا القسم من الكتاب عن كل تلك الأماكن التي اختلط فيها المسلمون والغربيون وهي في العادة مواقع تقع على الحدود بين ذينك العالمين مثلت في أغلب الأحيان مساحات مفتوحة للطرفين لأسباب عملية، وبالطبع كانت جزر المتوسط ساحة لهذه اللقاءات وأنتجت صورا للامتزاج الثقافي والتسامح الديني. فجزيرة (لامبيدوسا) التي تتمتع بموقع جغرافي متميز كانت احداها وتروي مذكرات البحارة الغربيين قصة المغارة التي كانت محلا لزيارة البحارة المسيحيين والمسلمين حيث كان فيها قبر لما تسميه المصادر الغربية (مرابطا) وهيكلا للعذراء، وكانت فيها عطايا وهبات من الطرفين كان يستخدمها الأسرى والبحارة الفارون من الطرفين بانتظار مرور سفينة صديقة تحملهم الى مكان آمن كما تذكر المصادر. أما الكاتبة فتعتبر طبيعيا أن يحدث مثل هذا التوافق وان يستمر في الحدوث حتى أواخر القرن السادس عشر خصوصا في جزيرة (لامبيدوسا) الواقعة منتصف المسافة بين صقلية وشمال افريقيا لأنها مع جزيرة (بنتيليريا) عرفت استمرارا للوجود العربي حيث عاشت فيها عوائل عربية حتى نهاية القرن الخامس عشر وكانت بها لهجة عربية محلية استمرت في الوجود ـ مثلما حصل في مالطة ايضا ـ حتى بعد أن اعتنق سكانها المسلمون شيئا فشيئا المسيحية على مذهبها الشرقي. ولا تنسى الكاتبة أن جزيرة (بنتيليريا) كانت تدفع خراجا بقيمة 60 أوقية مناصفة للحفصيين وملوك صقلية مما يعزز من نظرية وجود المناطق المسالمة وغير المنحازة بين العالمين وقد تواصلت لزمن طويل شهرة هذه الجزيرة كساحة لتجارة العبيد والتجارة العامة مع المغرب وجعل منها (روسو) المكان السعيد لكي يعيش فيها (اميليو) بطل أحد أعماله كما تقول الكاتبة. ويمكن تعميم هذه الحالة على كثير من جزر المتوسط حيث يبدو أن الحدود بين المجتمعين لم تكن ابدا محسومة وظاهرة بل حكمها التداخل والامتزاج بعكس ما كانت تتمنى السلطات الدينية أو السياسية في الجانبين. وتذكر الكاتبة حال جزيرة (ليباري) الواقعة في المياه الداخلية للمتوسط والتي كانت قد تعرضت لهجوم (بربري) عنيف عام 1544 وكيف أصدر أسقفها عام 1664 سلسلة من التعليمات لمنع خطر (الفوضى) من جراء اختلاط السكان المحليين مع العبيد الأتراك الساكنين في الجزيرة. والناظر في القائمة الطويلة من التحذيرات والتعليمات لا يسعه الا تذكر ما صدر عن أساقفة محاكم التفتيش في غرناطة وما بعدها ولكنها تدل أيضا على عمق الاختلاط والتمازج بين السكان من مسلمين ومسيحيين. وتبقى قصة جزيرة (طبرقة) الواقعة في خليج تونس المثل الأوضح للمنطقة الحرة المعترف بوضعها هذا رسميا من قبل الطرفين على ما تذكره الكاتبة. وقصة هذه الجزيرة مثيرة وفيها تلخيص لجزء من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب لا تزال آثاره واضحة للعيان حتى الآن. فالجزيرة التي وصفها الترجمان الفينيسي (جوفان باتيستا سالفاغو) في عام 1625 بانها حصن للجنويين يدفع الجزية لتونس وللجزائر كما تذكر الكاتبةكانت قد وصلت الى أيدي الجنويين ضمن صفقة للافراج عن القرصان (دراغوت) نائب (خير الدين ـ باربا روسا) بعد اعتقاله بالقرب من سواحل (كورسيكا) في عام 1540 على يد البحرية الجنوية، ومع الزمن أسست عائلة (لوميلّيني) الأرستقراطية مستعمرة تجارية وبحرية وزودوها بتحصينات قوية زاد عليها (شارل الخامس) ملك اسبانيا آنذاك حصنا وطابور حماية دائما، استخدمها كقاعدة للتجسس وعمليات الكوماندوس داخل الأراضي التونسية، ومع هذ كان الطبرقيون يدفعون الجزية لتونس والجزائر واسبانيا. ودخل على الخط الفرنسيون الذين عملوا كل ما بوسعهم للسيطرة عليها وحرضوا التونسيين على ذلك ولكن الجنويين صمدوا في الجزيرة حتى القرن الثامن عشر عندما خفّ اهتمامهم بالجزيرة وبدأوا بقبول عروض الشراء الفرنسية التي أجهضها التدخل السريع لحكام تونس لتأمين سيطرتهم على الجزيرة وقد استقبلهم السكان بالترحاب الا أن التونسيين تصرفوا معهم كغزاة كما تقول الكاتبة ورجع (سيدي يونس) قائد الحملة التونسية على الجزيرة الى العاصمة جاراً خلفه 800 عبد من أهالي الجزيرة منهيا بذلك مئتي عام من الاحتلال الجنوي. ويظهر من هذه العجالة عن تاريخ هذه الجزيرة أنها كانت تقوم بدور فريد من نوعه في حركة تبادل الأسرى بين العالمين وأن اقتصادها القوي الذي انتفع من القرصنة وتجارة العبيد والرهائن كانت تقوم به (شركات) تملكها عوائل غنية من الطرفين كانت في الوقت نفسه تشجع القرصنة وتكسب الأموال منها ومن المفاوضات اللاحقة لحل تبعاتها مما يدفع الكاتبة الى التساؤل: مع أي طرف كان سكان (طبرقة)؟ وهل جزيرتهم كانت أرضا مسيحية أم أن دفعهم الجزية لاسبانيا ودول المغرب يعني أنها كانت منطقة محايدة امّحت فيها الحدود بين الاسلام والمسيحية وبالتالي كانت جنّة للمرتدين؟ وهل كانت مخاوف بعض ممثلي الكنيسة من اعتناق المرتدين للاسلام مخاوف حقيقية أم أن هذا لم يكن أمرا مهما لسكان الجزيرة الذين مارسوا مرونة واضحة في الخروج عن دينهم كما تذكر الكاتبة؟ الشيء المؤكد هو أن قوانين القرصنة النافذة آنذاك لم تكن تعتبر الوقوف أو المرور في الجزيرة سببا كافيا لاعادة الاختطاف مما يؤكد وضعها الخاص. وبعد سقوط الجزيرة اعادت بقايا ساكنيها بناء مستعمرة جديدة في (سردينيا) عام 1738 قامت بنفس دور (طبرقة) وظلت علاقاتها قائمة وحسنة مع تونس والمغرب بشكل عام الى أن هاجمها التونسيون بقيادة (الريس محمد روميلي) في الثامن من أيلول (سبتمبر) عام 1798 آخذا كل النساء والأطفال كرهائن وهم من سيحاول (نابليون) تحريرهم عام 1803 الا أن غالبيتهم كانت قد توفيت أو فضلت البقاء خاصة النساء كما تقول الكاتبة.

جزيرة طبرقة وقصتها

والسؤال الذي تطرحه الكاتبة بعد سرد قصة جزيرة (طبرقة) وأهلها هو: ما هي الأسباب التي دفعت الى ضرب التوازن الذي ساد لفترة طويلة في (طبرقة)؟ وما الذي يدفع فجأة (بالبربر) للتعامل مع أهل (طبرقة) وكأنهم أعداء بعد أن تعايشوا كأنداد؟ تقول الكاتبة أن (طبرقة) وما شابهها من مواقع كانت قد أصبحت مع مرور الزمن حقائق تنتمي للماضي أي لتلك الفترة التي كانت فيها المواجهة الشديدة بين العالمين الاسلامي والغربي تعرف نوعا من توازن القوى،هذا التوازن أفرز ايضا سلسلة من علاقات التبادل والتعاون وجغرافيا (محايدة) أيضا، الا أن اختلال التوازن السياسي والعسكري بين المعسكرين الغربي والاسلامي خاصة في القرن الثامن عشر وبداية الانهيار العثماني وفقدان دول المغرب لاستقلالها الاقتصادي نتيجة لضغط الدول الأوروبية خاصة فرنسا هي السبب الرئيسي في رأي الكاتبة لردود الأفعال التونسية التي جاءت في سياق الدفاع ومقاومة التقدم الفرنسي الضاغط خاصة بعد استيلاء هؤلاء على (طبرقة) والسيطرة على الميناء وخنق تونس اقتصاديا كمقدمة لاحتلالها عسكريا، وفي هكذا أجواء وجد أهالي الجزر المعنية أنفسهم مجبرين على اختيار الانتماء والتحالف مع أحد الطرفين بعد أن تعودوا على الانتماء الى العالمين في نفس الوقت لمدة طويلة، وتلاحظ الكاتبة أن جهود (البربر) لم تأت بنتيجة، فميزان القوى كان قد تبدل لصالح القوى الغربية والأراضي التركية بدأت تقع تحت وطأة الاستعمار الغربي والقادمون الجدد لم يكونوا (مرتدين) جذبهم الشرق وديانته وخانوا من أجله ثقافتهم ودينهم بل أوروبيين مستعمرين جاؤوا ليفرضوا ثقافتهم.

قصص حياة كالروايات

وبالرغم من أن المغامرات في أراضي الامبراطورية العثمانيةوالاحتكاك بـ (الكفار) وملذّات المجتمع المسلم شكّلت ولقرون مادة قصصية لآداب الدول الأوروبية المتوسطية كما تقول الكاتبة الا أن الجماعات والأماكن التي احتلت حيزا وسطا بين العالمين لم تجد لها حيزا يذكر في الأدب الأوروبي المتوسطي وهكذا لم تظهر تلك الأعمال الأدبية التي كان أبطالها (مرتدين) الاّ متأخرة وكان هذا الظهور المتأخر مسايراً للصمت والخجل اللذين تعاملت بهما الثقافة (المسيحية) مع (فضيحة) الارتداد بعكس وضعية العبد الذي كان شخصية (شرعية). ومن الناحية الأدبية ظهرت قصص السجن عند (الكفار) أي المسلمين كصنف ادبي في اسبانيا القرن الخامس عشر، وتلخص الكاتبة عناصر الحبكة الدرامية لهذا الصنف الأدبي كما يلي: الوقوع في الأسر (في البحر أو اليابسة) ثم العبودية (سعادة أو حزن، سوق النخاسة، العمل والمعاناة) وفي النهاية الرجوع الى الحرية، كما تلاحظ أن شخصية (المرتد) عادة ما تكون غائبة تماما في هكذا قصص الا في المرحلة الأخيرة منها عندما يظهر (المرتد) الطيب لمساعدة العبد على نيل حريته عن طريق الفدية أو ـ وهو الغالب ـ بمساعدته على الهرب، ومع هذا تبقى سلبية شخصية (المرتد) واضحة في النصوص بل تتضاعف مقارنة بشخصية السجين العبد المسكين الذي يرفض تغيير دينه بالرغم من كل المصاعب والاغراءات، وتعتقد الكاتبة أن كثيرا من هذه القصص والروايات قد تأثرت بحكاية الهنغاري (جورجيفيتس) الذي كان قد أبعد الى اسطنبول وطبعت قصته في (فلورنس) عام 1548 على هامش كتاب (عادات وحياة الأتراك) لـ (جوفا أنطونيو مينافينو)، ويبقى مشهد العبد في رواية (دون كيشوت) المثل الأشهر على هذا النوع من الأدب كما تقول الكاتبة التي تضيف أنه وكما هو معروف فان هذا المشهد كان في جزء منه سيرة ذاتية لـ (سيرفانتس) مؤلف (دون كيشوت) الذي وقع في الأسر وقضى خمس سنوات في الجزائر بعد أن كان قد شارك في معركة (ليبانتو). وتلاحظ الكاتبة أن وجود ثلاثة (مرتدين) في نص (سيرفانتس) يؤدي الى تفسيخ التناقض الحاد بين الجبهتين اللتين يمثلهما في النص الأسرى (المسيحيون) من جهة والأتراك الشرسون من جهة أخرى. وتخص بالذكر (المرتد) الثالث الذي كان حارسا للسجناء ومترجما بين بطل القصة والمسلمة الجميلة (ثريدة) التي كانت تريد مساعدة المساجين على الهرب لكي تهرب هي أيضا معهم الى أرض (مسيحية) كي تعتنق دينهم. وتعتبر الكاتبة شخصية هذا المرتد أنموذجا واقعيا للحيرة بين العالمين ، فوجوده لا غنى عنه كصلة وصل بين الطرفين وحيرته التي لا تعجب (سيرفانتس) لم تكن أمرا سلبيا كما تقول الكاتبة بل منفذا للاتصال بـ (الآخر) وشرطا للحوار وتحقيق هدف الكاتب وهو اعتناق الفتاة المسلمة للمسيحية. والثابت ـ تقول الكاتبة ـ أن الرحالة الفرنسيين هم بالأخص من كتبوا عن بلاد الامبراطورية العثمانية وخصوصا (بلاد البربر) حيث تمتعوا بحرية حركة كنتيجة للتحالف الذي كان قائما آنذاك بين فرنسا والعثمانيين. وفي كتاباتهم عادة ما كانت تظهر شخصية (المرتد) اما في حدث دراماتيكي مبالغ فيه أو في مغامرة جنسية ـ وهذا هو الغالب في العادة ـ حيث يتم اكتشاف السجين بين احضان مسلمة زوجة كانت أو ارملة أو بنت السيد وكان لا يتم حل هكذا اشكالات الا بالزواج الذي يسبقه في العادة اعتناق الدين الاسلامي. ولا تغفل الكاتبة ان هكذا نوادر ما هي الا نتيجة للاعتقاد الذي كان ـ ولا يزال؟ ـ سائداً بين الغربيين أن بلاد المسلمين هي مساحات تكثر فيها الخلاعة والمجون ـ وهو الاعتقاد الذي غذته الروايات عن الحريم كمكان مليء بنساء منقطعات للشهوة ومحبات للغربيين لأنهم غير مختونين ـ وأن اللواط لم يكن فقط مسموحا وحسب بل كانت تمارسه علية القوم. هذا لا يعني كما تقول الكاتبة أن المسلمين الصالحين لم يجدوا لهم مكانا في روايات الرحالة ، بل انهم وجدوا وكان شرط وجودهم ليس فقط تخليهم عن اللواط بل وحتى ملذات تعدد الزوجات كما تقول. وتلاحظ الكاتبة أن الأدب الأوروبي بالاضافة الى استغلاله تجربة الكتابة عن الأتراك و (البربر) للحديث عن الشهوات وتفاصيل عنف (الكفار) فهو شكّل أيضا في بعض الأحيان وسيلة للكتاب الأوروبيين لنقد مجتمعاتهم بمدحهم للمجتمعات الاسلامية، وهكذا فكل ما يفتقر اليه (المسيحيون) من فضائل ـ كالعفة والاحسان والتسامح والمساواة ـ مزدهرة في الأراضي العثمانية.وبشكل عام ـ تلاحظ الكاتبة ـ لم تستحوذ شخصية (المرتد) في الأعمال الأدبية الغربية المهمة على مساحة واسعة منذ ان كانت المواجهة بين العالمين هي (العقدة) الرئيسية في هذه الأعمال ، ويشذ عن هذه القاعدة الفرنسي (برانتوميه) الذي أفرد مساحة مهمة لقصص حياة مشاهير (المرتدين) الذين قادوا نشاطات القرصنة (البربرية) في القرن السادس عشر .وبما أنه هو نفسه كان قرصانا عمل تحت لواء مرسيليا ومالطا ـ لا تستبعد الكاتبة أن يكون هو نفسه قد فكر يوما بالارتداد ـ فهو يبدي اعجابا واضحا بشخصيات بعض رؤساء القرصنة ذوي الأصول (المسيحية) خاصة خير الدين بارباروسا . فمع أن (برانتوميه) كان يعرف جيدا أصول خير الدين وأخويه البسيطة ـ حيث كانوا أبناء لتاجر جبن من (ليسبو) كما تقول الكاتبة ـ كما كان يعرف العلاقات الوطيدة التي كانت تجمعهم مع فرنسا ـ حيث كانت مشترياته من النحاس تمر من مدينة (أدج) ومشترياته من السلاح تمر من مرسيليا ـ الا أنه يحبذ تقديم رواية رومانسية تعزو أصول خير الدين واخوية الى مشارب أرستقراطية فرنسية وخبرة بحرية مع القبطان الفرنسي الشهير (فيليب دي شيف). وتسرد الرواية هذه أول رجوع للأخوة الى فرنسا وتصفية تركتهم وشرائهم لسفينة لممارسة القرصنة، تتبعها محاولة اخرى للرجوع الى الوطن كاغنياء مالكي ثروات وقصور وقلاع ولكن حب القرصنة والغنائم يتغلب في النهاية وهكذا يبقى الاخوة في الجزائر بعد ان تحولوا الى (أتراك). عقدة الأحداث هذه برأي الكاتبة تعطي تبريرا للقراصنة الشرسين وتقدم مقارنة جوهرية بين القرصنة الفرنسية و (البربرية) مما يدفع (برانتوميه) الى اعتبار أن (بارباروسا) قد شرّف اسم فرنسا. ولم تتصرف الدول الأخرى التي كان من مواطنيها قراصنة مشهورون بشكل مختلف عن فرنسا فها هي كالابريا في ايطاليا بلد الكاتبة وبلد القرصان الشهير (ألغ علي) المعروف أيضا باسم (أكيالي) تشهد صراعا بين أكثر من قرية تدعي كل واحدة منها أنه ولد فيها ويطلق اسمه فيها على شوارع عامة كما تذكر الكاتبة، ومع كل هذا لم يظهر مؤلف كامل عن (مرتد) ما الا في منتصف القرن السابع عشر ـ على ما تذكره الكاتبة ـ وكان هذا عن آخر مشاهير (المرتدين) الأرستقراطي الفرنسي (بونيفال) ويعود ذلك بحسب الكاتبة الى انحسار ظاهرة الارتداد مع انحطاط الدولة العثمانية ولشهرة وأهمية شخصية (بونيفال) نفسه الذي (خان المسيحية) بعد أن كان توج بطلا لمعركة (بيترفارادينو) ضد الأتراك وبقيت أصداء قصته تشغل الصالونات والجرائد لزمن، و(بونيفال) هذا هو نفسه الذي سيحتل موقعا مهما في الرحلة الى اسطنبول التي رواها (كاسانوفا) في مذكراته وهي الرحلة المشكوك في صحتها اصلا كما تقول الكاتبة. وتعتقد الكاتبة أن آخر من ظهر من المرتدين في الأدب المتوسطي هو والد (كارلينو) بطل كتاب (اعترافات ايطالي) لـ (ابوليتو نييفو)، والكاتب يجعل من مدينة (فينيسيا) الايطالية وعالمها المتهالك مسرحا لهذه الشخصية والفارق هذه المرة أن الأجواء التي تظهر فيها لم تعد دينية بل أكثر علمانية ولهذا فوالد (كارلينو) لم يعد تلك الشخصية (المرتدة) التي تعيش مأساة ضرورة التوازن بين ثقافتين متناقضتين ولا مخاطرة اللعنة الأبدية بل رجلا يعيش خارج الزمن وقابلاً للرؤية بسخرية ايجابية تماما مثل تلك الشخوص الكوميدية المتخفية بألبسة فارسية أو مملوكية والذين يظهرون بعد اسدال الستار للاعلان عن مسرحية اليوم التالي كما تلاحظ الكاتبة.

شخصية رمزية: فينسينت دي بول

المواجهة بين الديانتين ـ تقول الكاتبة ـ كانت واحدا من المواضيع التي تصدى لها المهتمون الغربيون المتابعون لشؤون الامبراطورية العثمانية، وهذا الموضوع كان يتيح لهم الفرصة للمقارنة بين ما كانوا يعتبرونه نبل الممارسات الدينية التركية وفساد رجال الدين عندهم وعدم صدق سيرتهم الدينية، كما كان ايضا مناسبة لتنبيه القراء الغربيين الى خطورة قوة الجذب التي يتمتع بها الاسلام خاصة على شرائح المجتمع الضعيفة برأيهم كالنساء والصبايا وحتى رجال البحر والتجار والمغامرين.

وتلاحظ الكاتبة أنه وحتى منتصف القرن السابع عشر اقتصر نشاط الهيئات الاكليروسية في مواجهة الخطر الاسلامي على البلاد الغربية (المسيحية) على التشهير بالرسول محمد (ص) وتشويه شرعته بدل التدخل المباشر في الدول الاسلامية، واقتصر النشاط المباشر لهذه الهيئات على ارسال رجال دين لمساعدة الأسرى والمحتجزين الأوروبيين وللتقليل من حالات الارتداد بينهم مع كل ما كان يحمل ذلك من خطر ارتداد رجال الدين هؤلاء أنفسهم، وقد حدث هذا فعلا بين كثيرين مما دفع (مجلس شيوخ) فينيسيا في عام 1630 الى توجيه طلب الى عميد المدينة لاتخاذ اجراءات للحد من ارتداد رجال الدين المبعوثين الى أراض اسلامية.

وتقول الكاتبة أن حياة رجال الدين النصارى المبعوثين الى اراضي الدولة العثمانية آنذاك لم تكن سهلة لأنهم من جهة اخرى ـ كما تقول ـ كانوا مضطرين للخضوع لحدود القانون الاسلامي الذي كان يسمح بحرية العبادة للسجناء الغربيين ولكنه كان يمنع المظاهر العلنية للديانات الأخرى غير الرسمية. ولكن، ومع أن هؤلاء كانوا يتحرون الحذر في تصرفاتهم ـ تذكر الكاتبة كيف أنهم لم يكونوا يرفعون الصلبان في الجنائز ـ الا أنه كثيرا ما كانت توجه لهم تهمة الخروج عن القانون وكانوا يعاقبون على ذلك. رجال الدين هؤلاء من جهتهم لم يتنازلوا أبدا ـ كما تقول الكاتبة ـ عن الأمل في تنصير من كانوا يتصلون بهم من المسلمين، وتؤكد الكاتبة أن هذا بقي حلما اكثر منه حقيقة، وهي تشير الى أن بعضهم ـ مثل الأب الفرنسي كوارتيير ـ اعترفوا بأنهم عمّدوا سرا الأطفال المسلمين الذين كانوا يطببونهم .وهكذا وبينما كانت الهيئات الدينية الاكليروسية ـ خاصة أتباع المذهب اليسوعي الذين عمدوا الى طبع كتيبات للمساعدة على مقاومة اغراءات الدين المحمدي ـ تحاول تنظيم وتقوية عملية اختيار رجال الدين المبعوثين الى أرض الاسلام ظهر على الساحة الفرنسي الذي سيصبح قديسا فيما بعد ليؤسس طريقة رهبانية جديدة وحديدية هدفها الأساسي مساعدة المسيحيين في الأراضي العثمانية كما تقول الكاتبة. وقد دفعه نجاحه في تأسيس بعثة تبشيرية في مدغشقر الى مد نشاطه في منتصف القرن السادس عشر الى بلاد (البربر) كما تسميها الكاتبة مضيفا الى المهمة القديمة المتمثلة في العمل على تحرير السجناء الغربيين وجودا دائما للمساعدة الروحية والمادية. وقد جمع (فينسينت) ذو الأصول البسيطة والحائز على احترام ودعم الطبقات الأرستقراطية الأوروبية بين الحماس الديني والقدرة على التنظيم والمنطق العملي، وقد بدت هذه الصفات واضحة ـ كما تلاحظ الكاتبة ـ في طريقة عمله في شمال افريقيا حيث اشترى وبمساعدة من بعض النساء الأوروبيات النافذات مثل ولية العهد (آنا النمساوية) وظيفة قنصل الجزائر وتونس ووضع فيهما اثنين من رجاله في محاولة لتثبيت وجوده في أرض (العدو) وتمويل نشاطاته من عائدات القنصلية حيث فرض ضريبة على كل عملية تجارية يقوم بها الفرنسيون في افريقيا . وبالطبع ـ كما تقول الكاتبة ـ كان الهدف الرئيسي لـ (فينسينت) ورجاله هو منع ارتداد العبيد والسجناء عن دينهم،وقد اعطى الأولوية في التحرير لأولئك الأسرى الذين كانوا يظهرون حماسا لدينهم الأصلي، وفي كثير من الأحيان لم يتلق العبيد والأسرى الطعام والشراب من (فينسينت) الا بعد اعترافهم للكاهن وتناولهم القربان المقدس.

وبينما نجح مشروعه الروحي ولو على حساب البعثات الايطالية والاسبانية التي طردها من مناطق نشاطها كما تقول الكاتبة الا أن مشروعه السياسي الاقتصادي اصطدم بعدة عراقيل حيث وقعت قنصلياته تحت عبء ديون ثقيلة ولم يستطع ممثلوه فيها مقاومة ما تسميه الكاتبة تعسف السلطات المحلية في الجزائر وتونس .وكيف لا تتعسف هذه السلطات ـ هذا ان كانت حقا قد تعسفت ـ ورجل الدين هذا الذي بدأ بعثته بحجة فك أسر السجناء ها هو في آخر سني حياته يضع الخطط لمحاصرة الجزائر نفسها ويشارك في تمويل حملة عسكرية قادها أحد فرسان مالطا القرصان بول. ولكن علاقة (فينسينت) مع بلاد المسلمين كانت في الحقيقة أعمق واكثر تعقيدا وتناقضا حسب رأي الكاتبة التي تذكر أنه وقبل موته بسنتين عثر في أرشيف أحد مموليه على رسالتين مرسلتين من طرفه عامي 1607 و1608وتحويان حكاية مفصلة عن تجربة سجن مر بها (فينسينت) في تونس تبعتها مغامرة الهرب مع مرتد كان لـ (فينسينت) الفضل في ارجاعه لدينه الأصلي كما يدعي. وترى الكاتبة أن ما يدعيه (فينسينت) في هذه الرسائل محض اختلاق وخيال منقول عما كتبه غيره في هذا المجال ذلك أن روايته تعيد نفس الأفكار والكليشيهات السائدة في الأدب السائد آنذاك من متاعب السجن الى السيد الطيب الذي يعلمه الكيمياء الى النساء اللواتي يقتربن منه لاغرائه فيغريهن هو الى المرتد الذي يساعده على الهرب ويرجع الى دينه .وتضيف الكاتبة أن المؤرخ الفرنسي (بيير غراند شامب) كان قد شكك عام 1929 في حقيقة رسائل (فينسينت) مبينا التناقض الواضح في كثير من التواريخ وعدم صدق كثير من التفاصيل، وبالطبع كما تقول الكاتبة أحدث ذلك الانتقاد زوبعة خصوصا في صفوف المؤرخين الكاثوليك الذين لم يقبلوا التشكيك في صدق (فينسينت) الذي كما ذكرت سابقا تم ترسيمه (قديسا).

مدرستان للسجن

وتذكر الكاتبة أن (توربيت دي لوف) هو الوحيد الذي تصدى لموضوع الرسائل من الناحية الأدبية الصرفة وأظهر الاحراج الذي عاشه (فينسينت) عند اكتشاف رسائله، ذلك أنه كانت هناك مدرستان أدبيتان غربيتان في أدب السجن عند المسلمين: الأولى (وردية) يمثلها (دي أراندا) وكتابه الأشهر ذو الخمس طبعات في أقل من عشرين سنة ـ من 1656 الى 1671 وذو المستوى الأدبي الجيد كما تقول الكاتبة والثانية المدرسة المناهضة للاصلاح والتي مثلها الأب (دان). فالأتراك وبالتالي المسلمون حسب رواية (دي أراندا) بشوشون ،انسانيون، تقاة ورعون، أسود في الحرب ومتسامحون بعد النصر، وبالمحصلة يرسم عن السجن في (بلاد البربر) لوحة ايجابية وجذابة كما تذكر الكاتبة ، وهذه اللوحة مخالفة لما كانت تبثه المدرسة المعادية للاصلاح وهي التي كان يرتكز عليها (فينسينت) وهو ما سبب له احراجا لأن روايته عن سجنه تنتمي الى المدرسة الوردية مما أثر على عمليات جمع التبرعات لمشاريع أتباعه في لحظة كانت اعماله تلاقي فيها مصاعب مالية حقيقية كما تقول الكاتبة. وتفسر الكاتبة هذا التضارب في المواقف من بلاد المسلمين الى التغيرات الحاصلة في الثقافة الدينية الغربية والتي أصبحت أكثر تشددا حيال كل مظاهر التعاطف مع (الكفار) اي المسلمين اضافة الى التحولات السياسية التي كانت تحدث آنذاك خاصة عزوف ملك فرنسا عن التحالف مع الامبراطورية العثمانية. وتصر الكاتبة على أن قصة (فينسينت) تظهر أنه كان يمكن أن يختبئ نوع من التعاطف (لا يهم ان كان حقيقيا أم زائفا تقول الكاتبة) مع الثقافة الاسلامية وراء سياسات التشدد في الدفاع عن العقيدة المسيحية امام المسلمين، وتستشهد لذلك ببعض وقائع رواية (فينسينت) لتجربة السجن المحتملة التي ادعى أنه عاشها في تونس، مثال ذلك علاقته بسيده الطبيب الطيب الذي علمه الكيمياء وكذا علاقته باحدى زوجات المرتد التي مع كونها مسلمة تتعاطف مع (فينسينت) بسبب تدينه كما يروي وبمساعدتها يقنع زوجها المرتد للرجوع الى المسيحية. وبرأيها أن هذه القصة كما غيرها تبين أن العلاقة مع الاسلام مرتبطة باطنيا في أذهان الغربيين مع نوع ما من التزييف والتزوير وهي لا تستبعد أن يكون (فينسينت) قد اخترع قصة سجنه لتبرير غيابه عن أدائه لوظيفته الدينية، وهي ترى أن رجوع المرتد مع (فينسينت) في الرواية أراده الراوي كدليل على نجاحه في (ارض الكفر) وهذه الحادثة مثلها مثل قصة (سيرفانتس) ومثيلاتهما دليل على أن الرواة أرادوا اظهار أهميتهم كوسطاء من أجل ايصال العبيد الى الحرية، وعلى هذا تستنتج الكاتبة امكانية اعتبار الارتداد الذي كان يحاربه هؤلاء لحظة ايجابية للحوار والانفتاح على العالم الاسلامي ذلك أن المرتدين قاموا بوظيفة الجسر الثقافي واللغوي بين العالمين. وتشير الكاتبة الى حالة الارتداد العكسي الوحيدة في العصر الحديث من الاسلام الى المسيحية والتي جاءت نتيجة لعمل أتباع (فينسينت) في عام 1646 حيث اعتنق المسيحية الأمير التونسي (محمد شلبي) الابن الأكبر لداي تونس (أحمد خوجة) اذ هرب الى صقلية بسبب غرامه بامرأة على ما يبدو ـ بعد أن حمل كل ما استطاع من المال. وبالطبع قامت حينها احتفالات كبيرة ونشر كتاب عن هذه القصة أشار بالخصوص الى ردة فعل والد الأمير كما تقول الكاتبة، وقد سافر الأمير الذي أصبح اسمه (فيليب) الى روما وقابل بابا الفاتيكان ومنها الى اسبانيا حيث قلده (فيليب الرابع) وسام فرسان (القديس جاكومو) وخصص له معاشا ملكيا ويداً أرستقراطية اسبانية. ولكن (فيليب) ورغم حياته المتحررة بين قادش وملقا الا أنه لم يستطع التعايش ـ كما تذكر الكاتبة ـ في الوضع الجديد وبقي على اتصال بأمه التي كانت تساعده ماديا لاقناعه بالرجوع، ورجع فعلا بعد موت أبيه الذي لم يسامحه أبدا وبقي في تونس بعض الوقت الا أنه لم يجد الراحة التي نشدها وبقي يتخبط للعثور على مكان يلائمه فتارة عمل قرصانا على سفن بنزرت وأخرى ذهب الى الحج وسورية ومصر، بعد هذا خطط للهرب الى المسيحية مرة أخرى وبعد أن اصبح حاكما لقلعة (لاغوليت) حاول مراسلة (لويس الرابع عشر) وبابا الفاتيكان مانحا لهم تونس مقابل الغفران ومات في اسطنبول بسبب الطاعون على ما تذكره الكاتبة. وعند الكاتبة أن قصة (محمد ـ فيليب) تظهر الاختلاف العميق في الاستعداد للانخراط في حياة المجتمع بين المسيحي الذي (يرتد) للاسلام ويعيش في بلاد المسلمين وصعوبة انخراط المسلم وان كان غنيا وتوفرت له شروط مادية مريحة في ايجاد مكان له في المجتمع الغربي. وهذه ملاحظة ذات حدين تحيلنا الى النقاشات الحالية عن المسلمين في أوروبا واشكالية انخراطهم في مجتمعاتهم الغربية. وتلاحظ الكاتبة أن الحدود بين الاسلام والغرب المسيحي كانت سالكة باتجاه واحد ، أي باتجاه العالم الاسلامي، بينما الاتجاه الآخر كان مليئا بالعراقيل، كما ترى أن الأدب الغربي وتجارب أشخاص مثل (فينسينت) أظهرت ازدواجية شخصية (المرتد) في الثقافة الغربية. ولكن ـ تتساءل الكاتبة ـ كيف يمكننا شرح هذه الاختلافات بين تصرف الغربيين والمسلمين؟ ولماذا يبدو (المرتدون) مستعدين لحرق الجسور مع ماضيهم وعلاقاتهم العائلية والاجتماعية؟ وكيف يوافق هؤلاء على المغامرة بامكانية الخلاص بعد الموت؟ أسئلة متجددة تطرحها الكاتبة وتجيب عليها رويدا رويدا بمزيد من البحث وتوسيع رقعته.

شعار العثمانيين

ميناء جنوه

* كاتب فلسطيني يقيم في اسبانيا